

الإسلام والمسلمون في الأدب الإثيوبي المدوّن باللغة الجعزية

د. عمر عبدالفتاح (*)

مقدمة:

إثيوبيا إحدى دول شرق إفريقيا ذات الحضارة القديمة، وهي دولة متنوعة الأعراق واللغات والديانات: ويتوزع سكانها على ٧٠ - ٨٠ مجموعة عرقية[1]، ويصل عدد لغاتها المحلية إلى نحو ٨٠ لغة محلية[2].

أما الديانات؛ فنجد الإسلام والمسيحية واليهودية، إلى جانب بعض المعتقدات المحلية، وقد دخلت اليهودية إثيوبيا منذ عصور قديمة، تُرجعها الأساطير الإثيوبية إلى عهد النبي سليمان عليه السلام في القرن العاشر قبل الميلاد، ولكن المرجَّح أن اليهود وصلوا إثيوبيا على إثر تفرقهم في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، حين خرّب بختنصر البابلي بيت المقدس، وشتّت بني إسرائيل[3]، أما المسيحية؛ فقد دخلت إثيوبيا في القرن الرابع الميلادي، هذا، وقد عرفت إثيوبيا الإسلام مع بداياته منذ هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة.

وتبلغ نسبة المسلمين حوالي ٤٥ ٪ من عدد السكان، بينما تصل نسبة النصارى إلى ٤٠٪، وغالبية نصارى إثيوبيا يتبعون الكنيسة الإثيوبية الأرثوذكسية، وهناك حوالي ١٢٪ من السكان يعتنقون الديانات التقليدية[4].

أما اليهودية؛ فقد تناقص عدد معتنقيها بشكل كبير، خصوصاً بعد عمليات تهجير يهود الفلاشا إلى إسرائيل، حيث لم يتبق إلا عدد قليل يقدّره بعض الباحثين بنحو ٢٠٠٠ شخص[5].

يختلف الأدب الجعزي عن الآداب الحديثة، سواء من حيث الشكل أو المضمون

وبالرغم من التفوق العددي لمسلمي إثيوبيا فإن زمام الأمور السياسية والاقتصادية يُدار منذ القدم بأيدي النصارى، الأمهرة في الأساس ثم التيجراي، تلك القوى المسيحية ذات التراث التاريخي والحضاري والثقافي الأبرز في تاريخ إثيوبيا.

وقد تميزت العلاقة بين هذه القوى وبين مسلمي إثيوبيا بالتوتر والشد والجذب، بل الصراع الحربي في بعض الأحيان، وذلك في فترات غير قصيرة من تاريخ إثيوبيا، كما سادها السلم والتعاون في إطار كيان سياسي واحد في فترات أخرى، ولم ينل المسلمون حقوقهم

(*) أستاذ مشارك بقسم اللغات، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة.

(١) موسوعة العلوم السياسية، تحرير محمد محمود ربيع، وإسماعيل صبري مقلد، (١٩٩٣م - ١٩٩٤م)، جامعة الكويت - الكويت، ص ١٢٨٨.

(٢) Bender, M.L. (1976): «Language in Ethiopia», Oxford University Press - London, p.13.

(٣) ابراهيم علي طرخان (١٩٥٩م): الإسلام والممالك الإسلامية في الحبشة في العصور الوسطى، في المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثامن، ص ص٣ - ٦٨، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - القاهرة، ص ٧.

(٤) The Statesman›s Year-Book 1995 - 1996, Edited by: Brian Hunter, Macmillan, p.529.

(٥) Africa south of The Sahara 1995, twenty-fourth edition, Europa publications limited, p.393.

السياسية والاجتماعية والدينية كاملة: على الرغم من الانفراج النسبي الذي حدث منذ تولي النظام الحالي السلطة في العقد الأخير من القرن العشرين، وذلك بعد عصور من الاضطهاد والتهميش التي عانوا فيها الشدائد من قبل النُّظم المختلفة التي حكمت البلاد على مرّ العصور[1].

حالة العداء المسيحي - الإسلامي في إثيوبيا، والتي تجلّت في هذا الشكل العنيف والمستمر، ربما تمثّل حالة خاصة في إفريقيا

تهدف هذه الدراسة إلى: رصد علاقة المسلمين بالمسيحيين (النصارى) في إثيوبيا، في الفترة الممتدة من بدايات ظهور الإسلام حتى القرن التاسع عشر، وذلك من خلال استعراض صورة الإسلام والمسلمين في الأدب الإثيوبي، في محاولة لتوضيح أبعاد هذه الصورة عبر عرض وجهات النظر المختلفة التي ترد في عدد من الأعمال الأدبية المدوّنة باللغة الجعزية Gee'z، وهي اللغة الأدبية التاريخية لإثيوبيا، والتي استمرت لغة للأدب الإثيوبي حتى القرن التاسع عشر، واندثرت بصفتها لغة تخاطب منذ القرن الحادي عشر تقريباً، واكتفت بالقيام بدور ديني بوصفها لغة الكنيسة الإثيوبية منذ ذلك التاريخ.

وتجدر الإشارة إلى أن اللغة الجعزية هي أقدم اللغات السامية التي عرفتها إثيوبيا، وهي تنتمي للفرع الجنوبي للغات السامية الذي يضم معها بقية اللغات السامية الإثيوبية (الأمهرية، والتيجرينية، والتجرية، والجوراجية، والأرجوبا، والهررية، والجفات)، واللغات العربية الجنوبية المنقرضة (السبئية، والمعينية، والقتبانية)، واللغات العربية الجنوبية المعاصرة (المهرية، والحرسوسية، والسوقطرية)، إلى جانب اللغة العربية الشمالية أو العربية الفصحى[2].

وهناك صلات قرابة لغوية وثيقة بين الجعزية واللغات العربية الجنوبية القديمة بشكل خاص؛ حيث تتعدد عناصر التشابه بينها في مختلف المستويات اللغوية، سواء على المستوى الصوتي أو الصرفي أو النحوي أو على المستوى المعجمي، الأمر الذي دعا بعض علماء الساميات إلى القول بأنها تفرّعت من لغات جنوب الجزيرة العربية، ولكن الرأي الأرجح أن الجعزية واللغات العربية الجنوبية تنحدر من لغة سامية قديمة.

وقد بدأ تدوين الجعزية منذ تاريخ مبكر يعود إلى عام ٢٥٠ ق م[3]، وتستخدم اللغة الجعزية الكتابة المقطعية؛ أي أن الصامت يُكتب بشكل ملازم للصائت، وكلّ رمز كتابي يعبّر عن مقطع؛ وذلك بخلاف معظم اللغات السامية الأخرى التي تستخدم الكتابة الألفبائية في كتابة لغاتها.

ويتفق معظم الباحثين على أن الجعزية أخذت رموزها الكتابية عن الخط المسند[4] الذي استعملته اللغة السبئية، غير أن الإثيوبيين أدخلوا عليه بعض التعديلات والتغييرات[5].

(١) لمزيد من التفاصيل راجع: فتحي غيث (بدون تاريخ): الإسلام والحبشة عبر التاريخ، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة.

(٢) إسرائيل ولفنسون (١٩٨٠م): تاريخ اللغات السامية، ط ١، دار القلم - بيروت، ص ٢٠.
وكذلك رمضان عبد التواب (١٩٩٩م): فصول في فقه اللغة، ط ٦، مكتبة الخانجي - القاهرة، ص ص ٢٥ - ٣٦. وصبحي الصالح (٢٠٠٧م): دراسات في فقه اللغة، ط ١٨، دار العلم للملايين - بيروت، ص ص ٤٩ - ٥٨.

(٣) Robert Hess (1970): "Ethiopia. The Modernization of Autocracy". Cornel University. p. 16.

(٤) «الخط المسند»: هو الخط الأساسي الذي كان سائداً قديماً في الجزيرة العربية قبل ظهور الخط العربي الحالي، ويطلق عليه بعض المؤرخين «الخط المسند الحميري» لارتباطه بالحضارة اليمنية الحميرية، وقد وجدت نقوش بهذا الخط في جنوب الجزيرة العربية والعراق والحبشة تدل على مدى انتشار هذا الخط في تلك الفترة.
لمزيد من التفاصيل راجع: رمزي البعلبكي (١٩٨١م): الكتابة العربية والسامية: دراسات في تاريخ الكتابة وأصولها عند الساميين، دار العلم للملايين - بيروت.

(٥) يحيى عبد المبدي أبو بكر (٢٠٠٢م): النظام الصوتي في اللغة



وتبدأ الدراسة: بتمهيد حول الأدب الإثيوبي التقليدي (الأدب الجعـزي)، ومن ثم تنتقـل للحديث عن موضوعها الرئيـس، وهـو صورة الإسـلام والمسـلمين في الأدب الإثيوبي، من خلال استعراضها لبعض نماذج من الأعمال الأدبية الجعزية التي عرضت للإسـلام والمسـلمين في إثيوبيا، وتنتهي الدراسـة بخاتمة تعرض أهم النتائج التي توصلت إليها.

تمهيد: الأدب الإثيوبي التقليدي «الأدب الجعزي»:

يُقصد بالأدب الإثيوبي بشـكل عام، وبالأدب الإثيوبي التقليدي بشـكل خـاص، «الأدب الجعـزي»، وهو الأدب المكتوب باللغة الجعزيـة، وقد كانت الجعزية بمثابة اللغة الرسـمية ووسـيلة التعبير الأدبية في إثيوبيا في العصور القديمـة، ولكنها توقفت عـن أن تكون لغـة حديث في الفترة ما بين القرنين العاشر والثاني عشر الميلاديين[١]، وبالرغم من ذلك فقد ظلت تحتل مكانة أدبية رفيعة، حتى بـدأت اللغة الأمهريـة في الظهور على السـاحة الأدبية في القرن الرابع عشـر الميلادي لتنافـس الجعزية على الصدارة، واستمرت اللغتان في تنافس حتى القرن التاسع عشـر عندما أُعلنت الأمهرية لغة رسمية لإثيوبيا، واكتفت الجعزيـة بالانزواء جانباً لتقوم بـدور ديني لغة للطقوس الدينية في الكنيسـة الإثيوبية، وهي لا تزال لغة الكنيسة الإثيوبية حتى الآن.

وللغـة الجعزية أدب ثري، وهو أدب ديني في معظمه، يتميز بارتباطه الشـديد بالمسيحية، حيث بدأ تدوينه مع تاريخ دخول المسـيحية الحبشـة، ولـم يثبت وجود أدب مكتوب في إثيوبيا قبل دخول المسـيحية، باستثناء بعض النقوش القليلة؛ أهمها نقشان للملك «عيزانا»، يُرجّح أنهما يرجعان للنصف الأول من القرن الرابع الميلادي[٢].

وقـد دخلـت المسـيحية إثيوبيا في القـرن الرابع الميلادي عن طريق أحد التجار المصريين (فرومنتيوس)، الذي رسـمته الكنيسة المصرية بعد ذلك مطراناً للكنيسة الإثيوبية، وبعد ذلك صار تعيين مطران الكنيسـة الإثيوبية يصدر عن الكنيسة الأرثوذكسـية المصرية، وظل ارتباط الكنيسـة الإثيوبية بالكنيسـة المصرية وثيقاً منذ دخول المسـيحية إثيوبيا، وحتى منتصف القرن العشـرين حين انفصلت الكنيسـة الإثيوبية عن الكنيسـة المصرية، وقد أعطى هذا الأمر ميزة خاصة للأدب الجعزي الذي نشـأ في أحضان الكنيسـة، ألا وهي اعتماده على الأدب الديني المسـيحي المصري، حيث كان يُنقل ويُترجم إليه كثير من الأعمال الدينية، سـواء عن القبطيـة أو عن العربية فيما بعد.

ويختلـف الأدب الجعزي عن الآداب الحديثة، سـواء من حيث الشـكل أو المضمون، فهو من حيث الشـكل لا يضم الأشـكال الإبداعية الحديثة، كالرواية أو المسرحية أو القصة القصيرة، بالمعنى المتعارف عليه، أما من حيث المضمـون فنجد أن غالبية الأعمـال تنحصر في أعمال دينية مترجمة أو أصيلة.

ويمكننا أن نقسـم الأدب الإثيوبي من حيث مضمونه والموضوعات التي يعالجها إلى قسمين:

الأول: أدب دينـي: ويمثـل الجزء الأكبـر من الأدب الإثيوبي.

والثانـي: أدب علمانـي أو دنيوي: والـذي غالباً ما يصطبغ بصبغة دينية يصعب معها تمييزه بشـكل تام عن الأدب الديني.

ويضم الأدب الديني أسفار الكتاب المقدس القانونية،

الأمهرية وعلاقته بنظام الكتابة، رسالة ماجسير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ص ص ٨٥ – ٨٦. وكذلك: رمزي البعلبكي (١٩٨١م): الكتابة العربية والسامية: دراسات في تاريخ الكتابة وأصولها عند الساميين، دار العلم للملايين – بيروت، ص ١٨١.

(١) Girma Demeka (2001) :The Ethio-Semitic languages) (Re-examination the Classification). In Journal of Ethiopian Studies. Vol.XXXIV. No.2. Institute of Ethiopian Studies. Addis Ababa University – Ethiopia. p.72.

(٢) مراد كامل: صلة الأدب الحبشي بالأدب القبطي، رسالة مار مينا في عيد النيروز، سبتمبر ١٩٤٧م، مطبوعات جمعية مارمينا العجايبي، الإسكندرية، ص ٦.



وأسـفار الأبوكريفا «الأسـفار الخارجية»[1]، وأدب سير القديسين وآباء الكنيسة وكتاباتهم، وكتب الصلوات وخدمة القداس والأعمال اللاهوتيـة، كذلك يمكن أن نضم لهذه الأعمال كتب السـحر؛ بالرغم من أنهـا غالباً ما تقع في منزلة وسطى بين الكتب الدينية والكتابات الدنيوية.

أمـا الأدب الدنيوي؛ فيتكوّن أساسـاً مـن الأعمال التاريخيـة التي تتناول إثيوبيا والأجزاء الأخرى من العالم، ومن أهمها حوليات chronicles ملوك إثيوبيا، كما يضم أيضاً بعض الأعمال اللغوية والقانونية والعلمية.

صورة الإسلام والمسلمين في الأدب الإثيوبي:

تميزت العلاقة بين مسـلمي إثيوبيا ومسيحيها، في الفترة موضع الدراسة، بالتوتر والشد والجذب، بل الصراع الديني والصدام الحربي، وذلك في فترات غير قصيرة من تاريخ إثيوبيا، كما سـادها التعايش السـلمي والتعاون في فترات أخرى قصيرة نسبياً.

وقد انعكسـت هاتان الحالتان على صفحات الأدب الإثيوبي، فبدت صورة الإسـلام والمسـلمين مشـوَّهة وبشـعة في الكتابـات التي دُوِّنت في عصـور الصراع، وكلما اشـتدت وطأة الصراع اشتدت البشاعة وتجسدت الكراهيـة والعداء في الكتابات الأدبية، وكلما خَفَتَ وهج الصراع والعداء تحسّـنت صورة الإسـلام والمسـلمين نسـبياً في الكتابـات الإثيوبية المسـيحية، فقد رافق الصراع الحربي والسياسـي بين الجانبين سـجالٌ أدبي مناظر ومواز للسجال السياسي والعسكري، وأخذ كلٌّ من الفريقين في العمل على رسـم صـورة ذهنية معيّنة عن نفسه أو عن الآخر.

وفيما يلي سـنعرض لكيفية تصويـر الأدب الإثيوبي للإسـلام والمسـلمين في ظل تلك العلاقات المتشابكة والمتباينة.

وفي هذا السياق؛ يمكن تقسـيم الأدب الإثيوبي إلى قسمين أساسيين، هما:

الأول: الأدب الإثيوبـي المترجـم: ويضـم الأعمال المنقولة عن لغات أخرى.

الثاني: الأدب الإثيوبي الأصيل: الذي وضعه الإثيوبيون بأنفسهم.

أولاً: صورة الإسلام والمسـلمين في الأدب الإثيوبي المترجم:

يُلاحـظ أن الأدب الإثيوبي المترجـم يكاد يخلو من أي ذكر للإسـلام أو المسلمين؛ وذلك لأنه غالباً ما يتناول أعمـالاً دينية، كأسـفار الكتاب المقـدس، أو بعض كتب الصلوات وخدمـة القداس والأعمـال اللاهوتية، وبعض الشـروح والتفاسير، وهي أعمال غالباً ما تبتعد عن تناول العلاقات الاجتماعية والصراعات السياسـية؛ لذلك فهي لم تتطرق للعلاقة مع الإسلام وأتباعه.

وبالرغم مـن ذلك؛ فهناك بعـض الأعمال الجعزية المترجمة التي جاءت على ذكر الإسلام والمسـلمين، وبخاصة الأعمـال التاريخية التي وُضعـت بعد ظهور الإسـلام، ومن أشـهر هذه الأعمال مخطوط «يوحنا النقيوسي»، ويعود تدوين هذا العمل إلى النصف الثاني من القرن السـابع الميلادي، أو مستهل القرن الثامن الميلادي، وقد نُقل هذا العمل من النسـخة العربية إلى الجعزية في القرن السابع عشر الميلادي[2].

---

(١) يطلق اسم «أسفار الأبوكريفا» أو (الأسفار الخارجية) أو (الأسفار غير القانونية) على مجموعة الأسفار والكتابات الدينية التي وردت في اثنتين من ترجمات الكتاب المقدس، وهما: الترجمة السبعينية، وترجمة الفولجاتا، زيادة على الأسفار القانونية عند اليهود وعند المسيحيين البروتستانت، وقد اعترف كل من الأرثوذكس والكاثوليك بقانونية هذه الأسفار، أما البروتستانت فلم يعترفوا بها، ولم يضعوها في طبعات الكتاب المقدس الخاصة بهم، فهم يعدون هذه الأسفار من وجهة نظرهم أسفاراً مدسوسة.

وتضم أسفار الأبوكريفا موضوعات متنوعة، فمنها ما يتعلق بالتاريخ مثل سفر المكابيين الأول، ومنها ما يتضمن القصص التاريخي كسفر المكابيين الثاني وسفر يهوديت، ومنها ما هو أساطير كطوبيث وسوزانا، ومنها ما هو شعر كأناشيد المزامير مثل صلوات (منسى) و (اساريا)، ومنها الأغاني مثل أغاني الرفاق الثلاثة في التنور، ومنها ما كتب للعزاء والنبوءة كسفر باروخ وخطاب إرميا، كما نجد فيها شعر الحكمة المنسوب ليسوع بن سيراخ وسليمان.

لمزيد من التفاصيل راجع: فؤاد حسنين علي: التوراة عرض وتحليل، بدون دار نشر، ص ص ١١٨ - ١١٩.

(٢) يرى بعض الباحثين أن النص الأصلي للمخطوط ربما يكون قد



وتجدر الإشـــارة إلى أن النص العربي فُقد، ولم يتبق ســـوى الترجمة الحبشـــية، والمؤلف الأصلي لهذا العمل هو «يوحنا النقيوســـي» أحد الرهبان المصريين الذي كان معاصراً للفتح الإســـلامي لمصر، وقـــد قام راهب إثيوبي بترجمة هذا العمل عن العربية إلى الجعزية وختمه بقوله:

«وترجمنـــا باهتمام كبيـــر هذا الكتاب مـــن العربية إلى الجعزية، أنا المســـكين الحقيـــر عند الناس، الضئيل فـــي القوم، الدياقون غبريال المصري بن الشـــهيد يوحنا القليوبي. بأمر اثناســـيوس رئيس جيـــوش إثيوبيا، وبأمر الملكة مريم سنا»[1].

ويعرض هذا الكتـــاب تاريخ العالم وأحداثه، منذ بدء الخليقة وحتى الفتح الإســـلامي لمصـــر، في مائة واثنين وعشـــرين باباً؛ لكنه يهتم بالحديـــث عن مصر وفضائلها، وينتهـــز كلّ فرصة ســـانحة للتحدث عـــن مصر ومجدها وخيرها وعلو أخلاق أهلها، حتـــى ينتهي به المطاف إلى قصته الرئيســـة، وهي فتح المســـلمين لمصـــر[2]، ويورد المخطوط أحداثاً مهمة حول فتح المســـلمين لمصر، وما قـــام به جيش المســـلمين في مواجهـــة الرومان، وموقف المصريين من تلك الأحداث.

تزخر الحوليات الملكية الإثيوبية بتفاصيل الصراع بين أتباع الإسلام وأتباع المسيحية في إثيوبيا

وتتمثـــل أهمية هـــذا المخطوط في أنـــه يُعد أحد أهـــم المصادر التي تتحدث عن الفتح الإســـلامي لمصر من وجهة نظر مســـيحية، ويزخر المخطوط بالحديث عن صفات المســـلمين الفاتحين ومعاملتهم لمســـيحيي مصر فـــي تلك الفترة، ففي أحد المقاطـــع نجده يصوّر معاملة المسلمين الفاتحين لأهل مصر فيقول:

«وظل عمرو قائد المسلمين اثني عشر عاماً [شهراً] يحارب المســـيحيين في شمال مصر، ولم يستطع أن يفتح مدينتهم، وفي العام [الشهر] الخامس، ومع حلول الصيف ذهب إلى مدينة «ســـخا» و «طوخ دمســـيس» وهو غاضب لقتـــال المصريين قبل أن يفيض ماء النهر، ولم يســـتطع أن يلحق بهم ســـوءاً، واستعصت عليه مدينة دمياط أيضاً، فأراد أن يحرق زروعهم بالنار، وســـار إلى قواته التي كانت في حصن بابليون بمصر ووهبهم كلّ الغنائم التي اســـتولى عليها من مدينة الإســـكندرية، ودمّر بيوت الســـكندريين الذين هربوا، وأخذ أشجارهم وأخشابهم وحديدهم، وأمر بأن يشيّدوا طريقاً من حصن بابليون إلى أن يصلوا به إلى تلك المدينة ذات النهرين حتى يحرقوا تلك المدينة بالنار، وعندما سمع أهل هذه المدينة ذلك أخذوا أموالهم وتركوا مدينتهم قفراً، وأما المســـلمون فقد أحرقوا تلك المدينة بالنار، وكان أهل هـــذه المدينة يأتون ليلاً ويطفئون النار، وأما المسلمون فقد ساروا إلى المدن الأخرى ليحاربوها، فاستولوا على أموال المصريين وفعلوا بهم السوء»[3].

وُضع بالقبطية أو اليونانية ثم تُرجم للعربية في زمن لم يتحقق تاريخه، كما لم تُعرف شخصية مُعرِّبه، ولم يُعثر على أثر للنص الأصلي أو لهذه الترجمة العربية، ويغلب على الظن أنها تُرجمت بعد القرن التاسع عندما انتشرت اللغة العربية بين الأقباط وحلّت محل اللغة القبطية في الدواوين، فبدؤوا ينقلون الكتب والمؤلَّفات القبطية إلى العربية.

وقد قام زوتنبرج Zotenberg بتقديم النص الجعزي ونشره مع ترجمة فرنسية له عام ١٨٨٣م. وفي عام ١٩٤٨م قام كامل صالح نخلة بترجمته للعربية عن الفرنسية. وهناك ترجمة إنجليزية لهذا العمل عن الجعزية قام بها تشارلز R. H. Charles عام ١٩١٦م. وقد قام د. عمر صابر عبد الجليل، أستاذ اللغات السامية بجامعة القاهرة، بترجمة النص الجعزي ودراسته، ونشر تحت عنوان: «تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي»، وصدر عن دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بالقاهرة.

لمزيد من التفاصيل راجع: المؤرخ الكنسي يوحنا النقيوسي: مؤرخ الغزو العربي لمصر. مجلة مرقس الشهرية، دير القديس أنبا مقار - وادي النطرون - مصر. www.stmacariusmonastery.org

(١) عمر صابر عبد الجليل (٢٠٠٣م): تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي: رؤية قبطية للفتح الإسلامي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - القاهرة، ص ٢٢٥.

(٢) FR. Tadros Y. Malaty (1993) : "Introduction) to the Coptic Orthodox Church". ST. George's Coptic Orthodox Church Sporting - Alexandria. .Egypt .pp. 133 - 134

(٣) R. H. Charles. D.Litt. D.D (1916) : «The Chronicle of) John. Bishop of Nikiu» .Translated from Zotenberg›s

وهكـذا: نجد الصـورة السـلبية التي يصـوّر بها المخطـوط المسـلمين، وكيف يعملون القتـل والتخريب في المـدن المفتوحة، كما يُلاحظ هنا أن الحرق والتنكيل يحـدث للمصريين وليس لقوات الـروم التي كانت تحتل مصر في ذلك الوقت، وتسـتمر أبعاد الصورة ترتسم بهذا الشـكل، ففي موضع آخر نجده يصوّر استيلاء المسلمين على مدينـة نقيوس بعد هـروب الجيـش الروماني من المدينة فيقول:

«أتى المسـلمون بعد ذلك إلى نقيوس، واستولوا على المدينة، ولم يجدوا فيها جندياً واحداً يقاومهم، فقتلوا كلّ من صادفهم في الشـوارع وفي الكنائس، الرجال والنساء والأطفال، ولـم يرحموا أحـداً، وبعد أن اسـتولوا على تلـك المدينة توجّهوا بعد ذلك إلى بلـدان أخرى وأغاروا عليها وقتلوا كل من وجـدوه فيها، وتقابلوا في مدينة صا باسكوتارس ورجاله - الذين كانوا من عائلة القائد تيودور - داخل سـياج كرم فقتلوهم، وهنا فلنصمت لأنه يصعب علينا ذكر الفظائع التي ارتكبها الغزاة عندما احتلوا جزيرة نقيوس»[١].

ويسـتمر الحال على هذا المنـوال في مواضع كثيرة من المخطوط، فنطالع على سـبيل المثـال: «أن العرب اسـتولوا على إقليم الفيوم وبويط، وأحدثوا فيهما مذبحة هائلة»[٢]، وكذلك يذكر في فتح المسلمين لأتريب ومنوف: «أن عَمْـراً قبض على القضاة الرومانييـن، وقيّد أيديهم وأرجلهم بالسلاسل والأطواق الخشبية، ونهب أموالاً كثيرة، وضاعف ضريبـة المال على الفلاحيـن، وأجبرهم على تقديم علف الخيول، وقام بأعمال فظيعة عديدة»[٣].

ويعقّـب صاحـب المخطوط على فتح الإسـكندرية بالقول: «ويستحيل على الإنسـان أن يصف حزن وأوجاع المدينة بأكملها، فـكان الأهالي يقدّمون أولادهم بدلاً من المبالغ الضخمة المطلوب منهم دفعها شـهرياً، ولم يوجد من يقوم بمسـاعدتهم، وقد تخلّى الله عن المسـيحيين ودفعهم إلى أيدي أعدائهم»[٤].

ولـم يتوقف الأمـر عند هذا الحـد؛ فنجد صاحب المخطوطة يتطاول على قائد جيش المسـلمين «عمرو بن العاص» رضي الله عنـه، ويتهمه بتحميل المصريين ما لا يطيقون، ويطابق بينه وبيـن فرعون الذي أثقل كاهل بني إسرائيل فحكم عليه الرب حكم الحق وأغرقه مع كلّ جيشه فـي البحر الأحمر، ويصفه بأنه أفظع من فرعون، ويتمنى أن يلقى نفس مصيره؛ لأنه ألحق الخسران ببلاد مصر[٥].

لكن هناك أمراً لافتاً للنظـر، وهو يدل على تناقض كاتـب المخطوطة، فعلى الرغم من أنه أفاض في كثير من المواضـع في تصوير ظلم الفاتحين المسـلمين وقائدهم وبشـاعتهم؛ فإننا نجده في بعض المواضع الأخرى يصوّر المسلمين وقائدهم بصورة إيجابية تتسم بالرحمة والعدالة والتسـامح! فنجده - مثلاً - يصف كيف اسـتقبل أهل الإسـكندرية دخول المسـلمين مدينتهم بعد هروب الروم منها، فيقول: «وفي العشـرين من شهر مسكرم قام تيودور مع كل الجنود والرؤسـاء وسـار إلى جزيرة قبرس، وترك مدينة إسـكندرية، ومن ثم دخل عمرو رئيس المسـلمين دون تعب مدينة إسكندرية، واستقبله أهل المدينة بتعظيم، لأنهم صاروا في فقر وبلاء شـديد»[٦]، فلو كان المسلمون قتلة ما استُقبلوا بهذا الترحاب العظيم!

وفي موضع آخر من المخطوطة نجده يذكر كيف أمَّن عمرو بـن العاص بطريرك الأقبـاط بنيامين الذي هرب مـن اضطهاد الرومـان واختفى لمدة ثلاثة عشـر عاماً، وأعـاده إلى منصبه، وأمّنه على نفسـه وعلى رعيته، وردّ

Ethiopic text. The Text and Translation Society. London. Chapter 115
http://www.tertullian.org/fathers/nikiu2_chronicle.htm

(١) Ibid. Chapter118.

(٢) Ibid. Chapter112.

(٣) Ibid. Chapter113.

(٤) Ibid. Chapter121.

(٥) Ibid. Chapter120.

(٦) عمر صابر عبدالجليل. مرجع سابق. ص ٢١٩.



إليه الكنائس والأديرة التي كان الرومان قد اغتصبوها من الأرثوذكس، كما يرد في المخطوطة حين قال: «وعاد الأنبا بنيامين بطريرك المصريين إلى مدينة الإسكندرية بعد هروبه من الروم لمدة ثلاثة عشر عاماً، وسار إلى كنائسه وزارها كلها، وكان الناس يقولون هذا النفي وانتصار الإسلام بسبب ظلم هرقل الملك، وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين على يد البابا كيرس، وهلك الروم لهذا السبب، وساد المسلمون مصر»[1].

وفي موضع آخر: يتحدث عن أمانة عمرو بن العاص، وعدم مساسه بأموال الكنيسة وأملاكها، بل حفاظه عليها حين قال: «ولم يأخذ عمرو شيئاً من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئاً ما سلباً أو نهباً، وحافظ عليها طوال أيامه»[2].

ويفسّر الدكتور عمر صابر عبد الجليل ذلك التناقض الواضح بين ما عرضه النص عن تسامح المسلمين وعدلهم، وعما وجهه إليهم من سباب وذم؛ برده إلى تدخّل المترجم الحبشي بالنصّ، وإظهار تعصّبه ضد المسلمين؛ فيذكر أن المترجم الحبشي قد زاد على النصّ متأثراً في الغالب بروح العداء ضد المسلمين، وذلك لأن الكتاب تُرجم في القرن السابع عشر، والذي يمثّل فترة الصراع الكبير بين المسلمين والمسيحيين في إثيوبيا، ومن ثم يبدو تعصّب المترجم الحبشي الذي سمح لنفسه أن يُقحم في النصّ عبارات من عنده تنم عن تعصّبه ضد الإسلام!

ويضيف أيضاً أن المترجم الحبشي قد عبث بنصّ «يوحنا النقيوسي»، خصوصاً فيما يتصل بالجزء الأخير منه، وهو الخاص بالفتح الإسلامي لمصر؛ لأن أسلوب النصّ فيما قبل ذلك (حين يتحدث عن الإمبراطور دقلديانوس أشهر معذبي الأقباط) لا يبدو فيه مثل هذه الشتائم الواردة في الجزء الخاص بالفتح الإسلامي، فضلاً عن أنه يتضح من الاستشهادات الواردة في المصادر المسيحية اللاحقة لكتاب النقيوسي الأصلي، مثل كتاب ساويرس بن المقفع وغيره، أن نصّ النقيوسي الأصلي لم يكن يتضمن هذا الهجوم السافر على المسلمين، والذي ينم عن تعصّب مقيت ضد الإسلام.

كذلك؛ فإن المصادر المسيحية الأولى في مصر، مثل كتب ابن البطريق وساويرس بن المقفع تُجمع على أن المسلمين عاملوا الأقباط معاملة حسنة إبّان الفتح، وهو ما أدى إلى تقديم القبط المساعدة للمسلمين والترحيب بهم، وهو ما نجده في كتاب النقيوسي أيضاً، وهو ما ينم عن أن المترجم الحبشي، بالرغم من ظهور تعصّبه الشديد ضد المسلمين، لم يكن ذكياً حيث لم يحذف كل ما يشير إلى تلك المساعدات، وعلى هذا فإن التناقض البادي في تأرجح النصّ المترجم بين المدح والقدح للمسلمين الفاتحين؛ إنما يرجع إلى تصرّف المترجم الحبشي، وعبثه بالنصّ الأصلي[3].

ثانياً: صورة الإسلام والمسلمين في الأدب الإثيوبي الأصيل:

يتميز الأدب الإثيوبي الأصيل، الديني والعلماني، الذي وضعه الإثيوبيون - إذا ما قورن بالأدب المترجم - بالثراء من حيث ذكره وتصويره للإسلام والمسلمين؛ لأنه غالباً ما يكون انعكاساً لمتطلبات وأمور حياتية أو اجتماعية، تتعامل مع المستجدات على الساحة السياسية والاجتماعية والدينية التي يتطلبها المجتمع الإثيوبي، الأمر الذي يفتح المجال للحديث عن الإسلام والمسلمين، وذلك بوصفهم شريحة مؤثرة في المجتمع الإثيوبي.

ويمكننا أن نقسم الأعمال الأدبية الإثيوبية الأصيلة التي تناولت موضوعات تمس الإسلام والمسلمين إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

يضم أولها: الكتابات التي تتناول الأعمال السحرية أو كتب السحر.

ويضم الثاني: الكتابات التي وُضعت دفاعاً عن المسيحية ضد الشبهات والانتقادات التي وجهت إليها من قبل المسلمين، بالإضافة للأعمال التي وُضعت

(١) R. H. Charles, D.Litt. D.D. Op.Cit. Chapter 121.
وكذلك عمر صابر عبد الجليل، مرجع سابق، ص ٢٢٠.

(٢) Idem.

(٣) لمزيد من التفاصيل راجع: عمر صابر عبدالجليل، مرجع سابق، ص ص ٣٦ - ٣٧، ٢٦٦.

لمهاجمة الإسلام ونقده، وهو ما يمكن أن نطلق عليه «أدب المعارضة».

أما القسم الثالث والأخير: فيضم الكتابات التاريخية، وتشمل الأعمال التي تتناول تاريخ إثيوبيا وأجزاء أخرى من العالم. كما يضم أيضاً سير ملوك وأباطرة إثيوبيا، والتي تُعرف باسم الحوليات الملكية chronicles.

وسيحظى القسم الأخير بالعناية الأكبر في هذا السياق: لأنه يمثل الجزء الأكثر وفرة وانتشاراً من ناحية، ولأنه الأكثر ارتباطاً بموضوع الدراسة من ناحية أخرى.

فيما يتعلق بالكتابات في موضوع السحر وما شاكله:

يجب أن نشير بداية؛ إلى أن هذه الكتابات تُعد أعمالاً محرّمة ومحظورة من قِبل الكنيسة الإثيوبية، ولا تحظى باعترافها، كذلك فإن الإسلام حرّم السحر، ودعت كلتا الديانتين لمحاربة كلّ أشكال السحر والدجل والشعوذة.

وعلى الرغم من ذلك الحظر والتحريم فقد وُضعت العديد من كتب السحر باللغة الجعزية، كما انتشر بين الإثيوبيين عمل التمائم والأحجبة التي تحتوي على تعويذات لتمنع عنهم الشر وتجلب لهم النفع والخير، والمفارقة اللافتة للانتباه في هذه الأعمال، سواء كتب السحر أو التمائم، هو استخدام بعض العبارات العربية[١] الإسلامية في تلك الكتابات خارج سياقها وبعيداً عن معانيها المعروفة، فكثيراً ما ترد في تلك الكتابات جمل وعبارات عربية هي في الأصل آيات قرآنية أو أدعية إسلامية: باعتبارها تمتمات أو تعويذات سحرية ترتبط بقوى الظلام وعالم الأرواح الشريرة، وهذه الجمل والفقرات ترد أحياناً بصيغها العربية نفسها دون تغيير فيها باستثناء كتابتها بالحروف الإثيوبية، وفي أحيان أخرى نجدها ترد مبتورة أو مشوّهة بحيث يصعب معرفة أصلها.

ومن الأمثلة ذات الصيغة العربية الواضحة نطالع:

"... walahamdulella rabbil almin ..."

«... والحمد لله رب العالمين ...»[٢]

"kwello šai'n warabbiw rahem rahman ... alim"

«وربي رحيم رحمن ... عالم كل شيء»[٣]

"... salomon qawla nabirahim tawakkalna alek bihor matutuk ..."

«.. توكلنا عليك بحرمتك سليمان قول نبي رحيم ..»[٤]

"...walahawla walaqawta ..."

«... ولا حول ولا قوة ...»[٥]

"... Abadan gemi'aw men'ard layazulu Abadan ..."

«... جميع من الأرض لا يزول أبداً أبداً ...»[٦]

وبعض هذه العبارات محرّف بشكل أكبر ولكن يسهل التعرف على أصلها، مثل:

"... lahillilla hillalla rabbi rabbi rabbi"

ويبدو أن أصلها هو «لا إله إلا الله ربي ربي ربي .. »[٧]

وبعض هذه العبارات ترد محرّفة بشكل كبير، يصعب معه تفسيرها أو ردها لأصلها، ولا يمكن تفسيرها إلا باعتبارها عبارات ذات أصول عربية، وذلك بالنظر إلى تركيبتها الصوتية، مثل:

"habayn ansrain qasar fala qolo bata'"

"agbi na'am qumaman layqufa hadina"[٨]

(١) Sevir Chernetsov (2006): «Ethiopian Magic Texts», in Forum for Anthropology and Culture, NO. 2, pp. 188 – 200. Peter the Great Museum of Anthropology and Ethnography (Kunstkamera), Russian Academy of Sciences, St PETERSBURG, pp. 188, 192. http://anthropologie.kunstkamera.ru/files/pdf/eng002/eng2_chernetsov.pdf

(٢) Stefan Strelcyn (1955): "Prières magiques éthiopiennes pour délier les charmes", in Roczink orientalistyczny, XVIII(1955), Fo. 82 rob of Ethiopic Text.

(٣) Ibid, Fo92 roa.

(٤) Ibid, Fo48 vob.

(٥) Ibid, Fo41 roa.

(٦) Ibid, Fo63 rob

(٧) Ibid, Fo60 rob.

(٨) Ibid, Fo41 ro.



وبالإضافــة إلى ذلك تــرد بعض العبــارات العربية المســيحية الصريحة، وبالرغم من ذلك استخدمها بعض الكتاب، مثل:

la'ab wala ebn wa'eruh alqeddus..."
"...ilahen wahed

«... الأب والابن والروح القدس إله واحد...»[١]

والأمــر اللافــت للنظر هــو أن اســتخدام تلك التعبيرات العربية، الإســلامية أو المســيحية، يبدو محصوراً في الأعمال المتعلقة بالســحر فقط، ويبدو أن قيمــة هذه العبــارات العربية لــدى واضعي هذه الكتب تعود لقيمتها الســحرية المفترضة في مثل تلك النصوص، والتي يبدو أنها تُســتمد من عدم معرفتهم بالعربيــة؛ لذا فأي تمتمات غيــر مفهومة للعامة من مســيحيي إثيوبيا تبدو مناسبة تماماً في هذا الإطار، وخصوصاً إذا ما كانت ذات صلة باللغة الدينية لأعداء مسيحيي إثيوبيا من المســلمين الذين ينظرون إليهم بوصفهم كفاراً ومارقين، ومن جنود الشيطان، وأعداء المسيح والمسيحية.

أما الأعمال التي تندرج تحت أدب المعارضة الدينية:

فنجدها تهدف بشــكل أساسي للدفاع عن المسيحية ضد الشــبهات والانتقــادات التي وجّهت إليهــا من قِبل المســلمين، وبعضها تجــاوز هذا الهــدف واتخذ موقفاً هجوميــاً وناقــداً للإســلام، وقد ظهــرت الحاجة لهذا النــوع من الكتابات في أوقات الصراع الشــديد بين أتباع الديانتين، وبشــكل خاص في فترة ثورات الإمام أحمد بن إبراهيم، والتي تحوّل فيها كثير من المسيحيين الإثيوبيين إلى الإسلام، فرأت الكنيسة ورجالها أن الحاجة ماسة لهذه الكتابــات لمواجهة التحدي الديني والثقافي الإســلامي، ناهيك عن التحدي السياسي والحربي.

ومن أشــهر الكتب التي وُضعت لهذا الغرض كتاب (بوابة الإيمان Anqasa Amin)، ومؤلف هذا الكتاب هــو «إنباكــوم»[٢]، وهو أحد المتنصريــن؛ ونظراً لأنه كان ملمّاً بكلتا الديانتين، فقد اســتطاع أن يكتب ذلك الكتاب، والذي كرسّــه خصيصاً للدفاع عن المسيحية ضد الإســلام، ولقد لقي هذا العمل الدفاعي ترحيباً خاصاً في فترة تدوينه، منتصف القرن السادس عشر، التي شــهدت إحدى أكثر فترات الصــراع تأججاً بين الديانتين.

وقــد قام «إنباكوم» في هذا العمل بالرد على كثير من اتهامات المســلمين ودعاويهم ضد المسيحية ومنها، على سبيل المثال، ما يتعلق بالدعاوى المثارة حول عبادة الأيقونة وتقديســها، وهو يدافع عن ذلك فيذكر أن المسيحيين لا يعبدون الأيقونة نفســها، بل يعبدون ويقدســون قوة الرب وقدرته التي تســكن المذبــح أو الأيقونة، وكذلك رد على شبهات حول تعدد الآلهة في المسيحية أو الشرك، فأوضح عبر تشــبيهات عديدة أن مفهــوم التثليث لا يناقض فكرة

(١) Ibid. Fo48 roa.

(٢) «إنباكوم» هو كبير رهبان دير دبرا ليبانوس Dabra Libanos الحادي عشر، ويعد هذا الدير أحد أكبر أديرة إثيوبيا، ويقع في مقاطعة شوا، وتذكر الروايات أن «إنباكوم» من أصل عربي، واسمه «أبو الفتح»، وقيل أنه كان تاجراً يمنياً، وقيل عراقياً أو سورياً. استقر في إثيوبيا منذ بدايات القرن السادس عشر. وقد درس الإسلام والثقافة الإسلامية، ثم اعتنق المسيحية واتخذ اسماً مسيحياً هو «إنباكوم»، وانضم لدير دبرا ليبانوس، وترقى في سلك الرهبنة حتى وصل لدرجة «أتشيجي»، وهي أعلى درجة كنسية في إثيوبيا، ويعد «إنباكوم» الأجنبي الوحيد الذي تبوأ هذه الدرجة الكنسية الرفيعة في إثيوبيا.
وقد تنصر «إنباكوم» قبيل ثورة الإمام أحمد بن إبراهيم بسنوات قليلة. ولما اجتاح الإمام جميع أنحاء إثيوبيا، وخضعت له أقاليم إثيوبيا كافة، ودمرت معظم الكنائس، وخربت الأديرة، وتزعزعت عقيدة المسيحيين وثقتهم في عقيدتهم تحت وطأة هذه الضربات المتتالية، وبدؤوا في اعتناق الإسلام رغباً أو رهباً. وضع كتابه (بوابة الإيمان) دفاعاً عن المسيحية وقدحاً في الإسلام. واشتهر عمله هذا أكثر من بقية أعماله وترجماته الأخرى، ومن بينها كتاب (قوانين الملوك)، (وبــرالام ويوسفات)، و (الموسوعة الحبشية)، وكتاب (أبو شاكر). لمزيد من التفاصيل راجع :
- Adrian Hastings (1996): "The Church in Africa. 1450 - 1950". Oxford University Press. pp. 136 - 147. 240.
- Dictionary of African Christian Biography: http://www.dacb.org/stories/ethiopia/ebaqom.html
- J. M. Harden (1926): An introduction to Ethiopic Christian Literature. Society for Promoting Christian Knowledge. London. p. 32.
- Tesfaye Gesesse. Op. Cit. p. 37.

وحدانية الرب!!

ولم يكتف «إنباكوم» بذلك الموقف الدفاعي عن المسيحية، بل اتخذ موقفاً هجومياً مضاداً للإسلام، واستطاع أن يوظف معرفته السطحية بالقرآن والإسلام لهذا الغرض، كما أنه ضمّن كتابه بعض الافتراءات عن الإسلام والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم[1].

وباستثناء الحالات السابق ذكرها؛ فإن الأدب الديني الإثيوبي لم يُشر للإسلام إلا بشكل عابر ومختصر، ويبدو الأمر كما لو أن هناك اعتقاداً سائداً بين الكتّاب بأن ذكر الإسلام أو الإشارة إليه مباشرة في الأعمال الدينية سينتهك أو يدنس قداستها.

وفيما يتعلق بالقسم الثالث الذي يضم الكتابات التاريخية:

نجد أن أهم هذه الكتابات يتمثّل في الحوليات الملكية التي تؤرخ لحياة ملوك إثيوبيا، والتي تفصّل في ذكر مآثرهم وإنجازاتهم وحروبهم وانتصاراتهم حتى هزائمهم، وقد حرص الإثيوبيون على تدوين هذه الحوليات باللغة الجعزية منذ اعتلاء «يكونو أملاك» العرش في القرن الثالث عشر، والذي استحدث منصباً من مناصب القصر الملكي، وهو منصب «تصحاف تئزاز»، ومهمة صاحبه تسجيل الأحداث الملكية وكل ما يتصل بحياة الملك من وقائع، وهي مدوّنة على شكل حوليات، تبدأ بالسنة الأولى من حياة الملك، وتنتهي بانتهاء عهده[2]، وقد كفل هذا التقليد وجود كثير من الوثائق التي أرّخت لتاريخ إثيوبيا، ولكن لسوء الحظ أن قسماً كبيراً آخر من هذه الوثائق فُقد، حيث أتت عليه الحروب الطاحنة التي شهدتها إثيوبيا لفترات طويلة عبر تاريخها.

وتزخر الحوليات الملكية الإثيوبية بتفاصيل الصراع بين أتباع الإسلام وأتباع المسيحية في إثيوبيا، والذي امتد لقرنين ونصف القرن من الزمان، تخللهما بعض فترات الهدوء، وتؤرخ بداية هذا الصراع باندلاع ثورة «صبر الدين» سلطان «إيفات» ضد الإمبراطور «عمدا صهيون» (١٣١٤م - ١٣٤٤م)، ويستمر حتى أواخر القرن السادس عشر.

ومن خلال مطالعة تلك الحوليات يتضح لنا الطابع الديني لهذا الصراع، وخصوصاً في الفترة من القرن ١٤م وحتى القرن ١٧م، وأيّاً كانت الأسباب الحقيقية، سواء الاقتصادية أو السياسية أو غيرها، التي أدت لهذا الصراع، فإن الراية التي دارت تحتها تلك الحروب والمعارك هي راية الدين، فإذا كان الجانب المسلم يرى فيها جهاداً ونصرة للاسلام، فالجانب المسيحي رأى فيها حرباً مقدسة ضد أعداء المسيح والرب.

ويذكر «عرب فقيه»[3] كثيراً من المواقف للإمام أحمد جرانيا، يؤكّد فيها مفهوم الجهاد الإسلامي، ومنها أن

---

(١) من بين ما ساقه «إنباكوم» في هذا العمل، انتقاده لإباحة الإسلام لتعدد الزوجات، فيقول: إن القرآن يقول: «وكلوا واشربوا وانكحوا ما تريدون من النساء، مثنى وثلاث ورباع وما ملكت أيمانكم»، ويعقب قائلاً: ألا تلاحظون أن القرآن لم يفرّق بين الرجال والنساء في هذا الأمر! ويتسائل مستنكراً حول إباحة هذا التعدد قائلاً: «لم يعط الرب آدم زوجة واحدة فقط، وهي أمنا حواء». ويبدو مما جاء في ذلك الانتقاد مدى التدليس والخلط، حيث جمع الكاتب بين آيتين من سورتين مختلفتين، وهما آية: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ﴾ (الأعراف: ٣١)، وآية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا﴾ (النساء: ٣). وقام بتحريف المعاني المقصودة من الآيتين الكريمتين واجتزأها ليقدح في الإسلام.
ولم يتوقف «إنباكوم» عند الجدال النظري والقضايا التي ينتقد الإسلام فيها، بل نجده يسوق بعض الافتراءات عن الرسول الكريم، فنجده يسوق القصة الملفقة التي تذكر أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) تعلّم على يد الراهب «بحيرى»، لكنه لا يكتفي بهذا فقط بل يلفق وقائع إضافية للقصة، فيذكر أن الراهب «بحيرى» قُتل بعد ذلك على يد أتباع محمد؛ وذلك بعد أن سقوا محمداً خمراً حتى سكر وثمل، ثم أخذوا سيفه وقتلوا به الراهب «بحيرى»!! وبعد أن أفاق محمد من سكره ظن أنه هو من قتل الراهب فقال: «لأنني قتلت معلّمي وأنا سكران من الخمر الذي أذهب عقلي؛ فإنه من الآن فصاعداً ملعون من يشرب الخمر من قومي»، وما زال ذلك التحريم للخمر سارياً في الإسلام حتى اليوم!!! ويجد المرء نفسه هنا في غنى عن الرد عن تلك الترهات، لتهافتها من ناحية، ولأن المقام هنا ليس للرد بقدر ما هو للعرض.
لمزيد من التفاصيل راجع:
Van Donzel (ed.) (1969):"Enbaqom. Anqasa-Amin" (La porte de la foi). Apologie ethiopinne du Christianisme contre l`Islam a partir du Coran. .Brill. leiden. pp. 194. 214

(٢) زاهر رياض (١٩٦٦م): تاريخ إثيوبيا، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة، ص ٨٤.

(٣) هو شهاب الدين أحمد بن عبد القادر الشهير باسم «عرب فقيه» صاحب كتاب (فتوح الحبشة).



سـكان بلدة أماجة، وكانوا من المسلمين، تحدّثوا للإمام أحمد باذلين له النصح بعد أن وصل في زحفه إلى مسافة كبيـرة داخل الهضبـة الإثيوبية فـي أن يرجع ولا يهاجم ملك الحبشـة في عقر داره، كما كان يفعل قادة المسلمين السـابقين، وذلك مخافة هلاك المسـلمين، فردّ الإمام أحمد بأنه لا يقصد إلا الجهاد في سبيل الله[١].

وعلى الجانب الآخر: نجد كثيراً من المواقف التي تؤكّد الطابع الديني لهذه الحروب، وأن المسيحيين خاضوها في سبيل المسـيح، ففي خطاب للإمبراطور «عمدا صهيون» في جنوده وقواته قبل بدء إحدى المعارك يخاطبهم قائلاً: «ألم تسمعوا ما يقوله المسـلمون؟ هؤلاء المتمردون على مخلّص الرب، هؤلاء الجاهلون بالمسـيح؟ إنهم يقولون إذا قتلنا المسيحيون فنحن شهداء، وإذا قتلناهم فسوف نفوز بالجنة، هذا ما يقوله هؤلاء المتمردون المسلمون الذين لا آمل لهم في الخلاص، إنهم يقابلون الموت بكل شـجاعة، فمـاذا عنكم يا من تعرفون الأب والابن والروح القدس، يا من تعمدتم باسـمه، وتطهرتم بدمه، كيف يكون ذلك؛ كيف تخشون هؤلاء المتمردين؟»[٢]!

ويبـدو أن هذا الجانـب الديني طـارئ على الفكر المسـيحي، وخصوصاً في ظل دولة ثيوقراطية كإثيوبيا، فالراية التي كانت تُرفـع دائماً في حالة القتال كانت راية الولاء للإمبراطـور المحارب والرغبة فـي الغنيمة، لكن يبـدو أن هذه المحفزات لم تعد قـادرة على إثارة حماس المحاربين للوقوف في وجه الاجتياح الإسلامي بما يحمله من فكرة الجهاد والاستشهاد، فتم بدفع هذا الحافز الديني إلى سـطح الأحداث، وخصوصاً في عهد «عمدا صهيون» وخلفائه، ومما يرجّح هذا الطرح مقولة الإمبراطور «عمدا صهيون» لجنـوده: «في الماضي كنتـم تقاتلون وتظهرون شجاعتكم وبسالتكم في القتال من أجلي أنا، والآن أظهروا بسالتكم وشجاعتكم في المعركة من أجل المسيح»[٣].

وبالإضافة إلى ذلك نجد أن «عمدا صهيون» يفسّـر ويوضح التغيرات التي طـرأت على تفكيره بقوله إن أحد رجال الرب، بعد أن راجع الكتاب المقدس، قال له: «اعلم أن مملكة المسـلمين فـي طريقها للـزوال والفناء، ففي الماضي كنتَ تقاتل في سبيل القوة الدنيوية الزائلة، تقاتل من أجل الذهب والفضة والملابـس المزخرفة، أما الآن فأظهر شجاعتك في القتال من أجل المسيح»[٤]!

ومنذ ذلك الحين بـدأ الطابع الديني يبدو جلياً لدى أباطرة إثيوبيا في حروبهم ضد المسـلمين، ففي حوليات الإمبراطور جلاوديوس، الذي تولـى الحكم في فترة أوج قوة المسـلمين، نطالع: «في السـنة العاشـرة من حكمه قرر الملك جلاوديوس، (عليه السـلام)، أن يحارب أعداء المسـيح الرب وأعداء كنيسـته، وعزم علـى تدمير بلاد المسـلمين كما دمروا بلاده، وأن ينزل ويصب على رؤسهم العقاب»[٥].

وفـي موضع آخر بالحولية نفسـها يروى أنه قبل أن يبدأ جلاوديوس آخر معاركـه التي قتل فيها، ضد الأمير «نـور بن مجاهد» حاول أحد المقربيـن منه أن يثنيه عن عزمه على القتال، وأخبـره أن «العرّاف» قد تنبأ بعواقب سـيئة، ولكن جلاوديوس رفض هذه المشـورة الانهزامية بغضب وقال: «إنني أفضل الموت في سـبيل المسيح وفي سـبيل رعيتي»[٦]، وتروي الحولية كذلك أن الأب يوحنس Abba Yohannes ، رئيـس رهبان دير «دبرا ليبانوس»، ذهـب لحضور تلـك المعركـة «... ليشـارك في مجد الاستشهاد... وليصل هناك ليموت بالسيف من أجل اسم

(١) عرب فقيه (شهاب الدين أحمد بن عبد القادر - ١٨٩٧م): فتوح الحبشة، نشر رينييه باسييه، باريس، ص ٤٢.

(٢) Manfred Kropp (1994): "Der Siegreiche Feldzug des Konigs ‹ Amda-Seyon Gegen die Muslime in Adal im Jahre 1332 N. Chr.›", Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium. Vol. 538. Scriptores Aethiopici. Tomus. 99. Lovanii. pp.21 - 22.

(٣) Ibid. p.22.

(٤) Ibid. p.23.

(٥) W.E. Conzelman (1895): "Chronique de Galawdewos". Roi d›Ethiopie. paris.p.42

(٦) Ibid. p.99.

المسيح الرب»[١].

وفي ظـل هذا المفهوم الديني للصراع؛ ترسم تلك الحوليات وتصف أبعاد صورة الإسلام والمسلمين في تلك الفترة. وبالطبع يجب ألا نتوقع أوصافاً إيجابية في ظل ذلك الصراع القاسي بين الفريقين، فلا غرابة إذن أن ينال الإسلام والمسلمون أقسى أنواع السباب والذم في تلك الأعمال.

ولنطالع، على سبيل المثال، وصف كاتب الحولية لصبر الدين سلطان إيفات، الذي ثار وتمرد في وجه الإمبراطور «عمدا صهيون»، حين يصفه بالقول: «ذلك المتمرد ابن الأفعى الخبيثة والثعبان الماكر، سليل البرابرة، ذرية الشيطان، الذي يمنّي نفسه بعرش داود»[٢]. ويقول: «سوف أحكم صهيون»، لقد ملأ الكبرياء قلبه، كما حدث مع أبيه إبليس، إنه يقول: «سأحول الكنائس إلى مساجد للمسلمين، وسأخضع ملك المسيحيين وشعبه لسلطتي...»[٣].

ومن الصفات الأخرى التي وردت بشأن صبر الدين نطالع: «الملعون المتمرد، نجل إبليس، عدو الصلاح والاستقامة، المعادي لدين المسيح، المُبعد عن الرب، المعزول عن مجد الابن، والمحروم من عطية الروح القدس...»[٤].

وبالطبع نال الإمام أحمد بن إبراهيم «جرانيا» سيلاً من السباب واللعان في غير مكان من الحوليات، نتيجة انتصاراته المتتالية على المسيحيين، والتي استمرت لأكثر من اثني عشر عاماً، حتى غلب الظن على مؤيديه وأعدائه بأنه قائد لا يُقهر.

ولكن الأمر اللافت أن كتّاب الحوليات وجدوا صعوبة كبيرة في تسويغ انتصارات الإمام المتوالية، فكيف ينهزم المسيحيون جنود الرب على يد المسلمين أعداء المسيح؟! وقد حاولوا تسويغ ذلك على أساس أن ذلك بمثابة اختبار وتطهير من الرب لهم، ويعلق أحدهم على ذلك بالقول: «لقد حدث ذلك كله من أجل تأديب المسيحيين، لقد سمح الرب لذلك أن يحدث لهم كي يظهر فضيلة الصبر لديهم، وكما أصبح صبر أيوب وسيلة لتطهيره عندما تسلط الشيطان عليه، وبهذه الطريقة تم اختباره وتزكيته، كما يُصفّى الذهب من شوائبه عن طريق النار....»[٥].

وفي هذا السياق؛ كثيراً ما يتكرر تصوير أحمد جرانيا بوصفه سوط العذاب والبلاء من الرب لتأديب المسيحيين، كما في: «... هذا المسلم الذي سمح له الرب بسفك دم المسيحيين...»[٦]، وفي موضع آخر نجد أن تمرد أحمد جرانيا وثورته في وجه المسيحيين يأتي رد فعل لبعض العبارات المتبجحة التي صدرت عن الإمبراطور لبنا دنجل، وذلك عندما «سأل الملك (تابعيه) كم فرساً لدي في حظيرتي؟ فأجابه البعض: إنها ثلاثة آلاف فرس»، فقال الملك: «وما نفعها وفائدتها لي، وأنا (قوي) وليس لي أعداء؟ من أجل ذلك خرج له جرانيا من الأرض السوداء»[٧].

ولم يقتصر وصف قادة المسلمين بهذه الصفات في تلك الحوليات على الشكل النثري فقط، بل اتخذ في بعض الأحيان شكلاً شعرياً منظوماً، ولكن

(١) Ibid. p. 105.

(٢) تُرجع الإسطورة الإثيوبية أصل الأسرة السليمانية التي حكمت إثيوبيا لفترة طويلة، واستمرت حتى الإمبراطور هيلا سيلاسي في سبعينيات القرن العشرين، إلى سليمان بن داود عليهما السلام.

(٣) Manfred Kropp (1994). op. cit. p. 3.

(٤) Ibid. p. 6.

(٥) Manfred Kropp (1988): "Die Geschichte des Lebna-Dengel, Claudius und Minas", Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium, Vol. 503, Scriptores Aethiopici, Tomus, 83, Lovanii, p. 11.

(٦) C. Conti Rossini, "storia di Lebna Dengel re d' Ethiopia", in Rendiconti della Reale Accademi dei Lincei, Scienze Morali, Serie V (1894), III, p. 627.

(٧) C. Conti Rossini, "Il libro della leggende e tradizioni abissine dell› ecciaghie Filpos", in Rendiconti della Reale Accademi dei Lincei, Scienze Morali, Serie V (1918), XXXVI, p. 712.



اختلاف الشكل لم يغير كثيراً من المضمون، فالحنق والغضب الشديدان ما يزالان المسيطرين على روح الكتابة. ففي أعقاب سقوط الإمبراطور جلاوديوس صريعاً في حربه ضد الأمير نور الدين بن مجاهد؛ نجد محرر الحولية يطلق العنان للعناته على نور الدين فيقول:

فلتحل عليه اللعنة في دخوله، ولتحل عليه في خروجه
ولتحل عليه في كل أفعاله
ليت كَرْمه يُصب بالبَرَد
وليُصب تينه بالصقيع
ولتتوقف أرضه عن إخراج القوت والغذاء
ليت خرافه تعدم الكلأ والمرعى
ولا تصل ماشيته إلى حظائرها
وليحل انتقام الرب القدير على بيت
مجاهد لمئات الأجيال
علَّ الرب يأمر الأمطار والندى
بألا تتنزل على تلاله
وأن يجعل الصقيع والجليد جزاءه
ليت سهام الرب تنهش لحمه
ونقمته تسفح دمه ...[١]

وفي ظل هذه الحالة من العداء والكراهية: فإن أي مصاب يقع بالمسلمين يعد مناسبة سعيدة عند أعدائهم، فكيف إذا كانت المناسبة هزيمة المسلمين ومقتل قائدهم، لقد عدّ كاتب الحوليات هذه المناسبة عيداً يحتفل به: ففي أعقاب هزيمة قائد «عَدَل» «أروي بدلاي» يتم وصف تمزيق أشلائه بإسهاب وبتفصيل شديد، وبروح يغلب عليها الاستمتاع والتشفي، كما يتم الحديث عن إرسال أعضاء جسده بعد تقطيعها لتوزع على مختلف مناطق الإمبراطورية باعتبارها تذكرات[٢].

(١) W.E. Conzelman. op. cit. p.108.

(٢) Jules Perruchon (1893): "Les chroniques de Zar'a Yaecob et de Ba'eda Maryam". Paris. p.65.

وإذا كان قادة المسلمين قد نالوا النصيب الأوفر من الهجوم والسباب واللعان من كُتّاب الحوليات؛ فإن المسلمين بشكل عام لم يسلموا من تلك الأوصاف وطالهم الأمر، ولنطالع مثلاً وصفهم بالقول: «كل المسلمين كاذبون، هؤلاء الذين لا يؤمنون بابن الرب»، كما جاء في رسالة الحواري: «من هو الكاذب إذا لم يكن هو من ينكر الأب والابن والروح القدس؟»[٣]، وفي موضع آخر نجد الإمبراطور «عمدا صهيون» يقول عندما ألحّ عليه مستشاروه للعودة إلى الوطن بعد إحدى معاركه المنتصرة ضد المسلمين: «طالما استمر هؤلاء الضباع والكلاب، أبناء الأفاعي، ذرية الشر، الذين لا يؤمنون بابن الرب في نهشي، فإنني لن أعود لمدينتي»[٤].

وهكذا تبدو صورة الإسلام والمسلمين سلبية بشكل عام في تلك الكتابات، فالحدّة الواضحة والروح المعادية هي الشعور السائد في تلك الحوليات الملكية، ولا نكاد نلمح تصويراً إيجابياً أو وصفاً محايداً على الأقل للمسلمين إلا في بعض الحالات النادرة، ومنها ما ورد عن وعد الأمير «أسمع الدين» بأن يحارب إلى جانب الإمبراطور «سرسا دنجل» Sarsa Dengel ضد المتمرد المسيحي حلملالا Hamalmala، وهنا نجد محرر الحولية يصف الأمير بالقول: «إن كلمة «أسمع الدين» كلمة موثوقة، وهو لا يكذب ولا يحنث بقسمه ولا بعهده»[٥]، وفي موضع آخر نجد وصفاً لحالة التصالح والتوافق بين المسلمين والمسيحيين التي نادراً ما كانت تحدث، جاء فيه «وأقام ملكنا معسكراً معهم، وكان هناك توافق كبير بين المسلمين والمسيحيين، وحدث كهذا ما كان ليحدث لولا إرادة الرب، إذ كيف يقوم أعداء دينه

(٣) Manfred Kropp (1994). op. cit. p.7.

(٤) Ibid. p.18.

(٥) C. Conti Rossini. "Historia Regis Sarsa Dengel (Malak Sagad)". CSCO Scriptores Aethiopici. Series altera. III. p.16.

المخطئون في حقه بمساعدته! إنه حقاً أمر عجيب أن يقوم المسلمون بمساعدته بينما أقاربه وهؤلاء القريبون من بلاطه يحاربونه»[1]، وهذه من المرات القليلة التي لا يتم فيها توجيه السباب للمسلمين بشكل مباشر، وإن كان الدلالات السلبية موجودة أيضاً في النص السابق.

الخاتمة:

وهكذا تبدو لنا صورة الإسلام والمسلمين على صفحات الأدب الإثيوبي حتى منتصف القرن التاسع عشر، فهي صورة سلبية الملامح في غالبية زواياها، وإن لم تخل من بعض الرتوش الإيجابية على قلتها، وقد جاءت هذه الصورة مدفوعة بأسباب سياسية واقتصادية ودينية، انعكاساً لطبيعة العلاقات التي جمعت بين مسيحيي إثيوبيا ومسلميها ، فبدت صورة الإسلام والمسلمين مشوَّهة وبشعة في الكتابات التي دُوّنت في عصور الصراع، فكلما اشتدت وطأة الصراع اشتدت البشاعة وتجسدت الكراهية والعداء في الكتابات الأدبية، وكلما خَفَتَ وهج الصراع والعداء تحسنت صورة الإسلام والمسلمين نسبياً في الكتابات الإثيوبية المسيحية، فقد رافق السجال الأدبي الصراع الحربي والسياسي بين الجانبين، وأخذ كل فريق في توظيفه من أجل رسم صورة ذهنية معينة عن نفسه وعن الآخر.

ويجب أن نشير هنا؛ إلى أن حالة العداء المسيحي - الإسلامي في إثيوبيا، والتي تجلّت في هذا الشكل العنيف والمستمر، ربما تمثّل حالة خاصة في إفريقيا، فانتشار الإسلام في إثيوبيا اختلف إلى حدٍّ كبير عن انتشار الإسلام في بقية أنحاء القارة الإفريقية؛ فلم يواجه الإسلام في زحفه وانتشاره في أنحاء القارة الإفريقية مثل هذه المقاومة.

ويمكننا أن نعزو ذلك إلى أن الإسلام في إثيوبيا واجه وجابه تحدياً من أتباع إحدى أكبر الديانات في العالم، والتي رسخت أقدامها في إثيوبيا منذ عدة قرون سبقت ظهور الإسلام، وخصوصاً من حيث السيطرة السياسية في مناطق المرتفعات، فوق الهضبة الحبشية تحديداً، بالإضافة إلى امتلاك هذه الديانة ثقافة متطورة وتراثاً أدبياً خاصاً بها.

وقد مثّل هذا التحدي الديني والثقافي قوة تُضاف إلى التحديات العسكرية والسياسية؛ ولذا نجد أن الإسلام استطاع أن يحقق غالبية نجاحاته وفتوحاته في المناطق الإثيوبية التي لم يكن للمسيحيين موطئ قدم فيها، وهي المناطق الواقعة خارج حدود الهضبة الحبشية معقل المسيحية الإثيوبية.

ونقطة أخرى نود أن نشير إليها هنا، وهي أن الأدب الإثيوبي في تلك الفترة كان يمثّل وجهة النظر الرسمية الإثيوبية التي كانت تدين بالمسيحية، كما ذكرنا، أما وجهة نظر المسلمين وتصويرهم لأنفسهم ولغيرهم فلم تُسجّل وتُكتب باللغة الجعزية، حيث كان ينظر إليها بوصفها لغة الدولة ولغة المسيحيين ولغة الكنيسة؛ ولذلك فمن المرجّح أن تكون تفاصيل هذه الصراعات الحربية والسجالات الدينية من وجهة نظر المسلمين قد حفظتها الروايات الشفاهية والأشعار الشعبية، وربما تكون قد دُونت بلغات إثيوبية أخرى ولم تصل إلينا، وربما تكون سُجلت باللغة العربية التي كانت بمثابة لغة الثقافة والدين لدى المسلمين في تلك البلاد، وذلك كما جاء، على سبيل المثال، في كتاب (فتوح الحبشة) لعرب فقيه، والذي جاء على ذكر هذه الصراعات، وتناول بالتحديد فترة صراع الإمام أحمد بن إبراهيم مع ملوك الحبشة بكامل تفاصيلها من وجهة نظر إسلامية.

واعتقد أنه لو توافرت المادة العلمية حول هذا الموضوع ربما يكون موضوع دراسة أخرى، تُقدّم رؤية المسلمين وتصويرهم لهذه الفترة وتلك العلاقات من خلال أعمالهم الأدبية.

(1) Idem.